# الفصل الأول

## شجرة العائلة

- الأب من رجال القضاء من أهل الريف ، والأم تركية من أهل البحر .
- جده لأبيه كان مجاورًا فى الأزهر مع الشيخ محمد عبده .
- زملاء والده فى الدراسة الزعيم الوطنى مصطفى كامل باشا وأستاذ الجيل لطفى السيد باشا وشيخ القضاة عبد العزيز فهمى باشا ورئيسا الوزراء عبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقى باشا .
- المطرب القديم عبده الحامولى أحيا حفل زفاف والدته .
- لطمت العروس عندما اكتشفت أن مرتب العريس وكيل النيابة عشرة جنيهات فقط . ثم أصبحت صاحبة عزبة .



obeikandl.com

## بطاقة الميلاد

**الاسم** : حسين توفيق .

**اسم الوالد** : إسماعيل .

**اسم الجد** : أحمد الحكيم .

**اسم الأم** : أسماء .

**اسم الأب** : سليمان .

**اسم الجد** : ميلاد البسطامى .

**مكان الميلاد** : حى محرم بك – الإسكندرية .

**تاريخ الميلاد** : الساعة الرابعة فجر يوم ٩ أكتوبر ١٨٩٨ .

obeikandl.com

# موكب الزعماء والعظماء

الجد للأب : الشيخ أحمد الحكيم ، فلاح من أعيان قرية صفط الملوك بحيرة ، كان مجاورًا فى الأزهر مع الشيخ محمد عبده ، انقطع عن الدراسة للزراعة حيث ورث عن آبائه ثمانين فدانًا .

كان رجلاً مزواجًا ، على ذمته أربع زوجات غير المطلقات . وله من كل زوجة ومطلقة أولاد ، بلغوا فى مجموعهم عددًا كبيرًا ، إلى درجة أنه كان لا يميز بعضهم من بعض ، فإذا جلس على المصطبة ، ومر أمامه صبىّ منهم ، سأله :

– أنت مين ياولد ؟ فيجيبه مثلاً قائلاً :

– أنا ابن ستوتة أو خدوجة أو هانم أو خضرة .

وكان إسماعيل الحكيم ، والد توفيق الحكيم ، ابن الزوجة الأولى المتوفاة ، الذى مضى فى طريق التعليم حتى نهاية الشوط ، فالتحق بمدرسة « الألسن » مع زميل له – هو عبد العزيز باشا فهمى ، شيخ القضاة فيما بعد ، وأحد الزعماء الثلاثة المطالبين بالاستقلال مع سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا ، ثم تركاها إلى مدرسة الحقوق – التى كان من بين زملائهما فيها وقتئذ إسماعيل صدقى باشا وعبد الخالق ثروت باشا رئيسا الوزراء فيما بعد ، وأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد باشا ، أوّل رئيس للجامعة المصرية ، الذى رشح فى بداية ثورة ٢٣ يوليو رئيسًا للجمهورية .

وقد أصدر إسماعيل الحكيم فى ذلك الوقت بالاشتراك مع عبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى ولطفى السيد وعبد الهادى الجندى ومحمود عبد الغفار مجلة قانونية اسمها « الشرائع » .

كما زامل الزعيم الوطنى مصطفى كامل الذى التحق بالسنة الأولى عندما كان هو فى السنة الرابعة عام ١٨٩١ .

وقبل أن يلتحق بمدرسة الألسن هو وزميله عبد العزيز فهمى ، كان لهما اتصال بالأزهر فقرآ القرآن وكتب الفقه وغاصا معًا فى كتب الشعر والأدب القديمة .

وقد ورث عن أبيه خمسة أفدنة فقط ، وعين بعد التخرج فى وظيفة كاتب بمرتب خمسة جنيهات . أورد توفيق الحكيم فى كتاب « سجن العمر » كلمةً بخطه فى دفتره الذى كان يسجل فيه أحداث حياته ، فقال :

– خرجت من مدرسة الحقوق ، وحصلت على الشهادة النهائية فى علم الحقوق « ليسانسيه » وانسلكت ضمن مستخدمى الحكومة ، وعينت كاتبًا « ظهورات » فى محكمة طنطا ، مع قاضى التحقيق محمد بك صالح وأحمد أفندى عبد الرازق .

وتنقّل بعد ذلك بين أقاليم الوجهين القبلى والبحرى ، فقد رقّى إلى معاون نيابة فى ملّوى ، ونقل منها إلى أسيوط وجرجا . ثم رقّى إلى مساعد نيابة فى إيتاى البارود ، ونقل منها إلى سوهاج ، ثم إلى بنها والمحلة الكبرى . وكان مرتبه قد وصل إلى عشرة جنيهات .

وعندئذ فكر فى الزواج .

## أهل الريف وأهل البوغاز

وإذا كانت أسرة أبيه ، أسرةً مصريةً صميمة من الفلاحين أهل الريف فإن أسرة والدته من أهل البحر ، ممن أطلق عليهم اسم « البوغازية » نسبةً إلى بوغاز الإسكندرية .

يقول توفيق الحكيم فى كتاب « سجن العمر » :

– يظهر أن أصل تلك الأسرة من الترك أو الفرس أو ألبانيا . إن سحنة والدتى وجدتى ، وما لهما من عيون زرقاء ، تنمّ عن أصل غريب على كل حال .

ولم أرث أنا ولا شقيق هذه الزرقة ، ولا ما يقرب منها ؛ لأن سحنة والدى الفلاح القح ، كانت فيما يبدو قديرةً على صبغ بحر أزرق بأكمله .

وكان جدّ والدتى لأمها يسمى « كلا يوسف » وقيل إنه من « قوله » مسقط رأس محمد على الكبير ، وجدها لأبيها كان يسمى الحاج ميلاد البسطامى ابن سليمان البسطامى الذى كان يمتلك مكتبةً ثمينة ، وكان صديقًا للعالم اللغوى الشيخ حمزة فتح الله زوج إحدى خالات والدته . وكانت الأم تعتبره من الأولياء والقديسين ولا تقسم إلّا بسيدى البسطامى .

وقيل إنه كانت لديه شجرة نسب تلحقه بأبى يزيد البسطامى الصوفى المعروف ، وقد ذكرت لى والدتى أن أصلهم من فارس ، ولكن أهلها نزحوا إلى تركيا ثم وفدوا بعد ذلك إلى مصر .

ووالدها سليمان ميلاد البسطامى .

وكان رجال البوغاز هؤلاء يتوارثون المهنة أبًا عن جدّ ، ويحذقونها بالممارسة ، وكانت لهم قواربهم التى يقودون بها السفن إلى البوغاز ، يشترونها بأموالهم الخاصة شركةً فيما بينهم ، ويقسمون أرباح العمل ، بمقتضى حصص توزع على الأسرة بعد وفاة عائلها ، فلما مات جدى لوالدتى ورثت عنه حصته .

وقد مات والدها وهو فى الخامسة والثلاثين ، وهى فى الثالثة ، قالت لى :

– إنه كان من بين من أطلق عليهم الخديوى اسم « العصاة » لأنه كان من أنصار عرابى .

وإذا كانت صلات جدّه لأبيه قد اتصلت بالشيخ محمد عبده ، وصلات أبيه بمصطفى كامل وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وعبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى ، فإن صلات جدّه لأمه قد اتصلت بالمطرب القديم عبده الحامولى ، الذى كان صديقًا حميمًا له إلى درجة أنه كان ينزل ضيفًا عليه ، كلما جاء من القاهرة إلى الإسكندرية .

## فتاة طموح

وكانت أسماء هى ابنته الصغرى ؛ إذ كانت لها شقيقة وحيدة كبرى يفصل بينهما فى الميلاد ستة إخوة ذكور ، ماتوا جميعًا بعد الميلاد الواحد تلو الآخر .

ولما مات الوالد عن أمها خديجة كلا يوسف وهى لا تزال فى أوج الشباب ، اقترنت بزوج أختها المتوفاة لترعى أولاد أختها بجانب الفتاتين ، فى كنف الزوج ، لكنها لم تلبث بعد الزواج ، أن احتضنت الفتاتين ، وأهملت أبناء الزوج من

أختها المتوفاة ، مما جعله يثور على هذا الوضع ويرسل إليها وثيقة الطلاق .

وتزوجت الأخت الكبرى من رجل ، من ذوى اليسار ، كان موظفا بالدائرة السنية فى الإسكندرية ، ومستحقًّا فى وقف ، وأقامت معها الأم والأخت الصغرى ، فى منزل صغير من طابق واحد ، به حديقة صغيرة فيها تكعيبة عنب .

وقد كانت الأم والأختان ، ذوات طبع ناريّ حاد ، جعل الأختين تعيشان فى خصام دائم .

وكانت الأم والأخت الكبرى أمّيتين ، لا تعرفان القراءة والكتابة ، على عكس الأخت الصغرى ، التى نالت قدرًا من التعليم . ذلك الأمر المعيب بالنسبة إلى فتاة ذلك العصر . لأن كل ما كان يسمح به لبنت مثلها أن تتلقاه من ضروب التعليم هو الإلمام بمبادئ التطريز والحياكة والتفصيل عند « المعلّمة » وكانت فى الإسكندرية وقتئذ معلمة أجنبية فتحت مدرسةً لذلك ، ذهبت إليها مع بعض أترابها فتلّقت عندها ضربًا من التعليم .

لكنها تعلمت أيضًا القراءة والكتابة ، وكان الدافع لذلك ، أنه كان لزوج أمها ابن شاب ، كان مفتونًا بقراءة القصص ، وإذا فرغ من المطالعة جعل يقصّ على الأسرة ما قرأ من أعاجيب قصص ألف ليلة وغيرها . فتعلمت القراءة والكتابة على يد شيخ ، جاء يحفظها القرآن وحروف الهجاء .

وانتهى الأمر بها ، بما عرف عنها من الطبع الحديدى ، وما فيه من عناد وإرادة واصرار بجانب ذكائها الفطرى وروحها المتوثب الطامح ورغبتها الجامحة ، إلى أن تقرأ بنفسها القصص والروايات التى سحرت لبّها .

وبذلك أصبحت فى أسرتها أكثر تنورًا من كل نساء جيلها .

## العريس صاحب الوسام

ولما رقّى إسماعيل الحكيم إلى درجة مساعد نيابة ، بمرتب عشرة جنيهات واستقرّ به المقام فى مدينة المحلة الكبرى ، قريبًا من قريته صفط الملوك ، بدأ يفكر فى الزواج .

وخططت لذلك زوجة أبيه الجديدة ، وهى سيدة بيضاء البشرة على جانب من الجمال والتمدن . وهى اسكندرانية الأصل ؛ ولهذا اتجهت الأبصار إلى الإسكندرية للبحث فيها عن العروس المنشودة .

وأوضح العريس طلبه ، بقوله :

– إننى لا أريد زوجةً من بيوت الباشوات التى يجلس على أبوابها الأغوات .

لأنه كان من المعروف وقتئذ أن رجال القضاء ، تتخاطفهم الأسر الثرية ، لما ينتظرهم من مستقبل فى حكم البلاد ، وقد تزوّج أكثر زملائه بالفعل من بنات الباشوات . فلم يكن ذا مطامح من هذا القبيل . كان كلّ مطلبه زوجة ذات وجه حسن وعلى قدر من التعليم والتنوّر .

وجاءت إلى الإسكندرية عمّة العريس وأخته ، لأن والدته كانت متوفاة . وشهدتا حفلة فرح من أفرح أسرة البسطامى ، وقع فيها بصرهما على العروس الموعودة فوجدا فيها بغيتهما من الجمال والانكسار ، كفتاة يتيمة الأب ، يمكن أن تعيش فى كنف الزوج ، بلا تدلّل أو تكبّر .

وكانت العمّة والأخت قد جاءتا مرتديتين ثياب « الملس » ومعهما صورة

شمسية للعريس على الصفيح ، وهو متشح بالوسام الأحمر الأخضر وهو وسام عضو النيابة ، فما أن رأت العروس هذا الوسام حتى ذهب لبّها وتمسكت بالعريس ورفضت العرسان المتقدمين إليها من التجار والبوغازية ؛ لأنها كانت فتاةً طموحًا ، ترى من نافذة البيت المطل على الطريق الموصل إلى سراى رأس التين مواكب رجال الحكومة الكبار فى ملابس التشريفة ، ومن بينهم رجال القضاء بمثل هذه الأوسمة . فكان من أحلامها كفتاة الاقتران بزوج له مثل هذا الوسام .

ولم تترك الفرصة تضيع من يدها عندما عارضت الأسرة فى قبول العريس ، لأنه عرض صداقًا قليلاً لا يزيد عن مبلغ خمسين « بنتو » وهو عملة ذهبية أقلّ من الجنيه ، فقد طردت الأم أهل العريس ، ولكن الفتاة الراغبة فى الزواج من صاحب الوسام ، أرسلت خلفهم صفية خادمتها ، تقول لهم سرًّا ، ارجعوا ثانية فالأم قد قبلت .

ولم يسع الأم بعد ذلك إلّا النزول آخر الأمر على إرادة ابنتها المصرّة ، ولم ينفع التعنيف ولا التقريع ، ولا صياحها بلهجتها الإسكندرانية :

– ما بجاش غير البنات يحكّموا رأيهم ويختاروا العرسان !

فما من شىء ، كان يقف أمام إرادتها ، إذا طلبت شيئًا وصمّمت عليه ، فلابد أن تناله . إن لها مقدرةً عجيبةً فى إخضاع جميع من معها لتلك الإرادة . لم يقف أحد فى وجهها إلّا أختها الكبرى ، ولهذا خاصمتها وعادتها طول العمر .

وعقد القران والزفاف فى بيت العديل فى الإسكندرية ، ويقول الحكيم فى كتاب « سجن العمر » :

– إن عبده الحامولى حرص بسبب صداقته لأبيها أن يغنى لها فى يوم الزفاف تلك الأغنية المعروفة :

اتمخطرى ياحلوة يازينة ياوردة من جوّة جنينة

ونقل الحكيم من دفتر الأب بيانًا بما صرف من جيبه الخاص بسبب الزواج كما يلى :

١٧ قرشًا صاغًا ثمن تذكرة درجة ثانية من المحطة إلى صفط الملوك .

١٠ قروش صاغ إلى عبده الخادم من ماهيته .

٢ قرشا صاغًا أجرة حمار .

٥ قروش صاغ أجرة التخليص على فراخ إلى الإسكندرية .

٥ قروش صاغ بقشيش للخدم .

كان الزواج فى ليلة الخميس ٢٥ أبريل ١٨٩٧ وأمضى العروسان أسبوعًا من شهر العسل فى بيت الأسرة فى الإسكندرية ، حتى يوم الخميس ٢ مايو ، فسافر العريس بمفرده إلى عزبة أبيه فى صفط الملوك ، ومنها إلى قرية « زرقون » لحضور عرس بعض الأقرباء ، وعاد مع أبيه إلى صفط الملوك فى صباح يوم السبت وفى اليوم التالى سافر إلى مقر عمله فى مدينة المحلة الكبرى ، لانتهاء أجازته لمدة عشرين يوما .

وفى يوم الأربعاء توجه إلى الإسكندرية ، وأقام مع عروسه إلى يوم السبت ٩ مايو ثم عاد بها هى وحماته إلى المحلة الكبرى ، حيث استقر بهما المقام فيها إلى حين – كما سجل ذلك فى دفتره الخاص .

## . . ولطمت العروس

وأقام العروسان بعد ذلك فى مدينة « المحلة الكبرى » بجوار عمل العريس .

لكن العروس الطموح لم تلبث أن شعرت بأوّل صدمة فى حياتها مع العريس القانع بمرتبه الضئيل . فيقول الحكيم :

– لما ذهبت العروس إلى بيت العريس ، سألته عن مرتبه الحقيق ، فقال :

– عشرة جنيهات .

فصرخت من الفزع ، وقالت :

– فقط ؟ إنهم قالوا لى عند خطبتى : إن مرتبك أكثر من عشرين جنيهًا غير اللى يخش لك !

فصاح فيها قائلاً :

– يخش لى منين ؟ أنا وكيل نيابة ، أيمكن لوكيل النيابة أن يدخل له شىء غير مرتبه الرسمى ؟ !

ثم صدمها مرةً أخرى ، وقال :

– ومع ذلك ، فالعشرة جنيهات غير كاملة ، لأنه مخصوم منها أيضًا احتياطى المعاش .

وهنا لطمت صدغيها ، وشعرت بالخوف من المستقبل ، فقال لها :

– احمدى ربك أنى لم أتزوجك بعد تعيينى كاتبًا « ظهورات » بخمسة جنيهات ، كما فعل بعض الزملاء .

# صاحبة العزبة

ثم رقّى بعد ذلك إلى درجة وكيل نيابة فى الدرجة الرابعة ، بمرتب خمسة عشر جنيها . ومع ذلك عاشت تخشى الغد ،و تأمين حياتها فى المستقبل .

وكان قد آل إليها بالميراث عن أبيها ما قيمته ألف جنيه ، فطلبت من زوجها استغلال هذا المبلغ فى مشروع ، فقال لها : إنه فلاح ولا يفهم إلّا فى الأرض .

وبحث طويلاً عن بغيتها حتى عثر على عزبة من سبعين فدانا فى ناحية « أبى مسعود » كانت تسمى عزبة « نورى » كانت معروضةً للبيع بمبلغ ثلاثين جنيها للفدان . وكان المطلوب ٢١٠٠ جنيه ، بينما الموجود ألف جنيه فقط .

فلم تتردّد فى شرائها ، واستكمال باقى الثمن من البنك العقارى ، فى مقابل رهن الأطيان للبنك ، على أن يسدّد الدين على مدى ثلاثين عامًا .

ثم يكشف الحكيم الستار عن سرٍّ عائلى مجهول ، فيقول :

— « إن والدتى ظلّت تعترف لوالدى بجميل سعيه وجريه واجتهاده بكل همّة وإخلاص فى موضوع شراء الأرض ، غير أنها فوجئت ذات يوم ، فى غيبة والدى باستلام أوراق ، ما اطلعت عليها حتى جنّ جنونها ، لقد اكتشفت أن زوجها كتب لنفسه ثلاثين فدانًا وكتب باسمها الأربعين ، ولكنها ليست باللقمة السائغة ولا الفريسة الهينة ، إنها لم تكد ترى وجهه حتى استقبلته بالصراخ والزعيق واتهمته بسوء استغلال التوكيل عنها ، ورمته بألفاظ النصب والاحتيال ، وظلّت تنكّد عليه عيشته بما طبعت عليه من صلابة إرادة حتى

استسلم وأذعن ، ونهض يصحّح الوضع كما شاءت هى ، وبذلك أصبحت حجج الأطيان كلّها باسمها وحدها .

قلت لتوفيق الحكيم تعليقًا على تلك الواقعة :

– هذه فضائح عائلية ماكان ينبغى أن تذاع .

فقال لى :

– كان لابدّ أن تذكر ، حتى لا تصبح مذكراتى إعلانية .

وفى الواقع إن والدة الحكيم كانت صاحبة شخصية متسيطرة على الأب المسالم ، كانت كلما تحدثت إليه عن أبيه تقول :

– أنا أذكى من أبيك . أنا أسرع فهمًا من أبيك .

وقد كان ذلك طبعها منذ الصغر ، بحكم ما يجرى فى عروقها من دم تركى وتستدل على ذلك من وصف لها فى طفولتها ، جاء فى الفصل الرابع من رواية « عودة الروح » على لسان أم سنية فى حديثها إلى محسن الذى يعتبر صورةً طبق الأصل من توفيق الحكيم ، حين قالت له :

– نينتك كانت بنت أتراك ، من عيلة تركية ، وكانت أصغرنا ، لكن كانت شيختنا ، وكلنا كنا نخاف منها ، ونحسب حسابها ، بنت الجندى التركى أبو شنب أصفر ، ومفيش لعبة نلعبها ، إلّا ونعملها هى الريسة ، وكنا مسميينها الملكة بنت السلطان . كانت تحبّ تميز نفسها عنّا ، إن لبسنا فى العيد أحمر تلبس هى أخضر ، وإن لبسنا أخضر ، تلبس هى أحمر ، وياويلنا نهار ما تزعل منا . كانت تقول لنا :

– أنا بكره أبقى غنية خالص ، واشتريكم عندى جوارى وعبيد .